

القسم الثاني

اللغة العربية الفصحى.. لغة إلهامية

في فقه العربية وبلاغاتها

﴿ وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ (٣١)

[سورة البقرة: ٣١]

- ملاحظة: هذه ثلاثة موضوعات، أوردت فيها أدلة كثيرة (لا تقل عن عشرين دليلاً) تثبت أن اللغة العربية الفصحى، إلهامية، وهذه الأدلة لم ترد في كتاب، فالقدامى والمحدثون، سواء منهم الذين اعتبروا العربية إلهامية - والذين اعتبروها وضعية - لم يوردوا لها - أدلة تذكر. إنما كانوا يعبرون عن فتاعات غير معللة.

الموضوع الأول

في فقه العربية وبلاغتها...^(١)

اللغة العربية - إلهام أم مواضعة واصطلاح؟

- أنا أجزم أن اللغة العربية «إلهام» وليست مواضعة واصطلاحا، لأسباب كثيرة سنذكرها خلال هذا البحث، شيئا فشيئا، نام العرب قبل الإسلام - ليلة - ثم استيقظوا صباحا، وإذا هم قد نسوا لغتهم التي كانوا يتكلمونها نسيانا تاما، وأخذوا يتكلمون العربية الفصحى، وقد يستغرب القارئ ذلك، ولكنى أذكر بشيئين لنخفف الغرابة:

الأول: قوله تعالى: ﴿ مَا نَسَخَ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِمَّا أَوْمَرَتْهَا أَلَمْ تَلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [البقرة: ١٠٦]، إن قوله تعالى ﴿ أَوْ نُنسِهَا ﴾ يعني أن الله تعالى أنزل بعض الآيات، لغاية مؤقتة، ثم أنساها الرسول صلى الله عليه وسلم وصحابته الكرام رضوان الله عليهم، فلم يعد الرسول الكريم ولا صحابته الأبرار يذكرون شيئا منها. ولو كلمة واحدة، بل لم يعودوا يذكرون أن شيئا من الآيات نزل، ثم أنساهم الله تعالى إياه.

- أما ما نسب إلى مجاهد بأنه فسّر ﴿ مَا نَسَخَ مِنْ آيَةٍ ﴾ «أى: ما نمحو من آية، فسره بأنه مثل محو آية: «الشيخ والشيخة إذا زنيا فارجموهما آتية»^(٢) فليس قولا موثقا، أى هو قول مردود، لأن نظم القرآن الكريم أعلى بكثير من هذه الجملة التي لا تخلو من ركافة، فالقرآن كله ليس فيه كلمة «آتية»، هذا فضلا عن أن «آتية» قلقة في هذا الموضع، فهي غالبا ما تستعمل مع النفي، وليس مع الإثبات.

- يضاف إلى ذلك (للدلالة على فهامة هذه الجملة) أن القرآن الكريم قال: ﴿ الزَّانِي وَالزَّانِيَةُ فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدٍ وَلَا تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَشَهَادَةٌ عَلَيْهِمَا إِذَا طَافَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ [النور: ٢]، فقدّم الزانية على الزانى (لأسباب ليس هنا مقام ذكرها). فكيف قدّم القرآن الزانية على الزانى فلو كان هذا القول صحيحا لما قدم الشيخ على الشيخة؟ إن ذلك خُلف من القول، لا يمكن أن يقع في كلام الله جلّ وعلا،

(١) كتبت سنة - ٢٠٠٥م.

(٢) مختصر تفسير ابن كثير ١/ ١٠٣، دار القرآن الكريم ١٩٨١، اختصار وتحقيق محمد على الصابوني.

ثم جاء في هذه العبارة المردودة: (إذا زنيا) والمعروف أن «إذا» تأتي للاحتمال الكبير، أما التي تأتي للاحتمال القليل فهي «إن»، ومن المعلوم - بالضرورة - أن احتمال زنى الشبيخة والشيخ قليل جدا، فلو أن الكلام من الله تعالى، لما كان يمكن أن يأتي في هذه العبارة إلا «إن» التي تدل على التقليل، لأن القرآن الكريم تتصاقب فيه الألفاظ والمعاني على أكمل وجه وأتمه، ولهذا كان معجزا.

- حاصل القول، أن ما يُنسيه الله تعالى رسوله الأعظم صلى الله عليه وسلم وصحابته، لا يعودون يذكرون منه شيئا، لا لفظا ولا معنى.

- والشيء الثاني الذي يُخفف من الغرابة أن الإنسان قد يفقد ذاكرته، نتيجة مرض أو حادث، فلا يعود يذكر شيئا مما مضى، ولكنه يُدرك ما يَمُثُلُ في الحاضر فَحَسُب. ومثله الإنسان المُصاب ببعض أنواع «الصرع».. فهو يأتي أفعالا وأقوالا، في حال الصرع، وعندما يُفَيق لا يذكر من الأعمال والأقوال شيئا.

- وهكذا كان حال العرب، نسوا لغتهم السابقة، واستيقظوا على الفصحى، ولعل لغتهم السابقة هي «العربية البائدة» التي نسيها العرب، وقد يُسأل: ألم تترك آثار من العربية البائدة؟ فأجيب: بأن لا، أما تعلم أن الله تعالى هيأ كل ظروف الجزيرة العربية لتكون (مهادا) للإسلام ينطلق منها إلى بقاع المعمورة آنذاك؟ فلم يبق شيء من هذه اللغة البائدة، لكى لا تُزاحم العربية الباقية، هذه التي ألهمها الله تعالى العرب، قبل الإسلام بحوالى مائة وخمسين إلى مائتى سنة، ولعل تلك العربية البائدة هي لغة عاد وثمود الذين قال الله تعالى فيهما: ﴿فَأَمَّا ثَمُودُ فَاتَّبَعُوا أَمْرًا غَالِيًّا ﴿٦١﴾ وَأَمَّا عَادُ فَاتَّبَعُوا أَمْرًا غَالِيًّا ﴿٦٢﴾ صَرَصِرَةً عَابِيَةً ﴿٦٣﴾ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَنِينَ أَيِّامًا فُضِيًّا ﴿٦٤﴾ فَمَنْ قَرَّبَ إِلَهُكُمُ الَّذِينَ كَانُوا يُعْبَدُونَ ﴿٦٥﴾ فَهَلْ تَرَى لَهُمْ مِنْ بَاقِيَةٍ ﴿٦٦﴾﴾ [الحاقة: ٥ - ٨].

فمعنى قوله تعالى: ﴿فَهَلْ تَرَى لَهُمْ مِنْ بَاقِيَةٍ﴾ والنفي المُطلق أن تكون بقيت لهم باقية، من لغة أو شعر أو علم، والنفي جاء عن طريق الاستفهام لكى يلفت الاستفهام المتلقى لفتا قويا لحقيقة هذا النفي ووكادته.

- بلى، هيأ الله تعالى ظروف الجزيرة العربية، لتكون مهادا للإسلام، ينطلق منها إلى بقاع المعمورة آنذاك، أفلم يجعل الله تعالى من العرب أقواما شجعانا أشداء (عن طريق التغايز بينهم) لكى يكونوا أهلا لحمل رسالة الإسلام إلى العالم؟ لاشك أن الإسلام ضاعف

ما فى نفوسهم من شجاعة ونجدة، ولكن الإسلام بُنى على نفوس عامرة بالشجاعة والنَّجدة، لأن الله تعالى أرادت مشيئته، أن تتم الأمور من خلال واقع ملموس أصلاً، أما قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِنْ لُتُوبٍ ﴿٣٨﴾﴾ [ق: ٣٨]، وهو تعالى قادر على أن يخلق السموات والأرض، وما بينهما فى لحظة واحدة، ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴿٨١﴾﴾ [يس: ٨٢]، ذلك لكى يعلمنا أن الأشياء لا تتم - ما عدا ما كان مُعجزاً - إلا من خلال تفكير، وعمل ووقت.

- ولهذا، كان سهلاً على قدرة الله تعالى أن تنقل رسوله الأعظم صلى الله عليه وسلم فى طَرْفَةِ عَيْنٍ من مكة المكرمة إلى المدينة المنورة، آن الهجرة، كما أسرى به فى ليلة واحدة، بل فى بعض ليلة، من مكة المكرمة إلى القدس الشريف، ثم عَرَجَ به إلى السموات العلاء، ثم أعاده إلى مكة المكرمة فى بعض تلك الليلة.

- بلى، جعل العرب على ما وصفت، لكى يكونوا أهلاً لحمل الإسلام، ولكن تخيّل - على سبيل الافتراض - لو أنزل الله تعالى الإسلام فى أمة الفُرس، تلك الأمة التى وصلت من التُّرف إلى درجة من التُّرهل، لا تمكّنها من نشر الإسلام فى بقاع الأرض، فلم يعد رجالها أشداء كالرجال العرب، وكانت من الانحدار الأخلاقى والقيمي، بحيث لم تعد نفوسها قادرة على الإشراق بالإسلام، وعلى أن تكون عامرة بأنواره الساطعة، ودلالاته العظيمة، وروحانيّته التى تصل بين الأرض والسماء، بين الإنسان العاقر الفؤاد، وبين ربّه تعالى خالق الكون كله والعباد، لمعاش ثم معاد.

- إذن، لن يثبت الإسلام فى الأرض، ولن يعبد الله تعالى فيها لو أنزل على الفُرس، ومثل الفُرس.. الروم، حَذَوَ النُّعْلَ بالنُّعْلِ.

- ثم.. لماذا لم يحتل الفُرس أو الروم مكة المكرمة، وهما أكبر قوتين فى العالم آنذاك؟ أو لماذا لم يحتلها الغساسنة أو المناذرة؟ هناك.. أسباب طبيعية - لا مجال لذكرها - هيأها الله تعالى لتصدّهم عنها.. يُضَاف إلى ذلك أن الله تعالى أعمى قلوبهم عنها، لكى تظل بكيفية صالحة، لكى تكون «مهاداة» للإسلام العظيم.

ثم ألم تعلم أن من تهيئة ظروف الجزيرة العربيّة - بمشيئة إلهية - أن جعل جيل الصّحابة - رضوان الله تعالى عليهم. أفضل جيل، حتى تقوم القيامة، تطبيقاً لفهمهم الصّافى للإسلام، وأفضل جيل إيماناً وأخلاقاً، واجتهاداً فى العبادات، وجهداً فى سبيل الله؟ كل ذلك، وهم من أمة أميّة تقل بين أفرادها معرفة القراءة والكتابة

﴿ هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ، وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾ [الجمعة: ٢]، أمية حرف، وأمية هداية.

- وأن جعل من تهيئة ظروف الجزيرة العربية- كبار الشعراء (كشعراء المعلقات) من البادية، أما الذين يعيشون في مكة والمدينة (ما عدا حسان ابن ثابت)^(١)، الذي أعده ربه لكي يكون المنافع عن رسالة الإسلام) فقد كانوا شعراء صغارا، من الدرجة الثالثة، كابن الزبعرى الذي كان - لشقوته- يهجو الرسول صلى الله عليه وسلم الكامل، ذلك لأمرين: الأول: أن يكون قول مشركى مكة المكرمة تافها فاسدا، واضح البطلان، إذ يقولون - كما ورد في كتاب الله تعالى -: ﴿ وَيَقُولُونَ أَيُّنَا لَتَأْرِكُوا ۗءَ الْهَيْتَا الشَّاعِرِ مَجْنُونٌ ﴾ [الصفات: ٣٦].

- فلو كان شعر قريش شعرا عظيما كشعر البادية، لكان قولهم مما يلتفت إليه إلى حد ما، لأن القرآن الكريم على كونه كان معجزا، (فإنه يرتفع ثلاث درجات على شعر المعلقات)^(٢)، فإن ذلك يجعل من ادعائهم بأن القرآن الكريم شعر.. شيئا يلتفت إليه، أما وشعرهم، على ما هو من تدنى المستوى، فإن كل - مُنصفٍ من أيامهم وحتى تقوم الساعة- يحكم بأنهم يمارون ويماحكون ويكابرون، ويقولون ما ليسوا على قناعة به، أو ما يشبه القناعة.

- وهذا مشهور ومعروف من قول الوليد ابن المغيرة، أحد زعماء قريش، الذى استمع للقرآن الكريم يتلوه رسول الله صلى الله عليه وسلم، كما ورد فى سيرة ابن هشام، فلم يقبل - فى حديث مع قومه - أن يصفه بأنه شعر، أو سجع كهان، أو سحر، وإنما تواطأ معهم على أن يقولوا لوفود القبائل بأنه «سحره يفرق بين المرء وزوجه، وبين الأب وابنه والأخ وأخيه»^(٣).

- لأن ظاهر الأمر واحد، فالرجل الذى كان يُسَلِّم كان يُفَارِق زوجته - إذا بَقِيَتْ

(١) أكتب «ابن» دائما بألف وإن وردت بين علمين، لأن عدم وجود الألف تقص فى الإملاء، إذ لا مُبِرر مُقنِع لعدم وروده حتى وإن كانت «ابن» بين علمين، وبهذا نُخَفِّف على المتعلم فنجعل «لاين» قاعدة واحدة. وقد سلف القول بمثل هذا.

(٢) الشعر الجاهلى، هو أعظم نص أدبى بشرى، فى اللغة العربية، ويرتفع فوقه درجة الحديث النبوى الشريف، فالحديث يعلو على الشعر الجاهلى بإحدى عشرة خاصية، كما أوردت ذلك فى كتابى «منايع الشعر، ومكانة الشاعر» (ص-٧٠-٧٥) ثم تكون فوق الحديث درجة فارغة. ثم يأتى بعد هذا الفراغ القرآن الكريم، لأن الحديث أعلى نص بيانى، وهذا.. معنى أن القرآن يرتفع على الشعر الجاهلى ثلاث درجات، درجة يحل فيها الحديث النبوى، ودرجة فراغا، والدرجة الثالثة هى درجة القرآن الكريم المعجز.

(٣) سيرة ابن هشام ٢٧٠/١.

على الكفر-، والزوجة التي كان تُسَلِّم كانت تُفارق زوجها، والأب الذي كان يُسَلِّم كان يتباعد عن أبنائه، والابن الذي كان يُسَلِّم كان يتباعد عن أبيه غير المسلم، الظاهر واحد والجوهر مختلف، اختلاف النقيض للنقيض، ولكنهم كانوا يُحَطِّطون لإبعاد قبائل العرب التي تَفِدُّ على مكة المكرمة في المواسم، عن الإسلام بهذا الظاهر.

- بل - لماذا أرسل الله تعالى طيرا أباييل - (جماعات)، فرمت أبرهة وجيشه بحجارة من سجيل فقضت عليهم، وجعلتهم كعصف مأكول؟ أليس ذلك من المِهْدَات للإسلام العظيم؟ ومن إدخال الشعور إلى رُوع العرب جميعا، وقريش خصوصا أن مكة المكرمة ذات شأن عظيم، وأنها أهل لأن تكون قبلة العرب ومحجَّهم، ثم.. قبلة العالم الإسلامي، بعد انتشار الإسلام العظيم؟

- وآخر ملاحظة بهذا السيِّاق، أن اللُّغة العربيَّة لو كانت قد نمت نموًّا طبيعيا لما وصلت إلى ما وصلت إليه من الغنى في المفردات والمرونة في التعبير (التي تتجاوب مع أدق الخلدات النفسية) بحيث أصبحت بهذا الغنى الإلهامي، قادرة على التعبير عن معاني القرآن العظيمة^(١)، وليس هذا شأن اللُّغات التي تنمو نموًّا طبيعيا، لأنَّ اللُّغة - في هذه الحالة - تأتي تجاوبا مع معاني البشر - التي هي أضيِّق من معاني القرآن الكريم، التي لا تحملها إلا لغة ألهمها الله تعالى للبشر.

أما ترى أن شعر البادية في الجاهلية كان أغنى الشعر العربي منذ فجر الإسلام، وحتى يوم الناس هذا، بل وحتى تقوم الساعة، وإن كل الشعراء في كل عصور الإسلام، كانوا يتطلعون دائما - لا إلى تقليد صورته، وتشابيهه واستعاراته التي كان عليها طابع البيئة البدوية (فلو كان هذا ما يتطلعون إليه لنزل بمرتبة الشاعر، لأن الشاعر - والأديب عامة - لا يُبدع إلا إذا عبر عمَّا يحسن به من موجودات بيئته)، وإنما أعنى أنهم كانوا يتطلعون إلى أسلوبه في «كيفية» اختيار الألفاظ في سياقها، واختيار الصور والتشابه والاستعارات.. لكي تقع موقعها المناسب في سياقها، مع ضرورة تعبيرهم عن بيناتهم ومعانيهم، وبغير هذا.. لا يعظم الأدب.

- ومن المعلوم - بالضرورة - أن البيئات البدوية الفقيرة بمفردات الحياة - عادةً - وبالمعنى هي فقيرة - عادةً أيضا - بالمفردات اللغوية، وبالأدب الرفيع، لأنَّ الأدب

(١) سيكون الحديث عن غنى كلمات اللُّغة العربيَّة، عن طريق الاشتقاق الذي لا تضاهيها به لغة أخرى، وعن مرونة التعبير التي تتفوق به على كل اللُّغات، سيكون موضوع مقالة لاحقة إن شاء الله تعالى.

الرُّفِيع لا يكون إلا إذا كانت البيئة غنيّة بالّلغة ، غنيّة بمُفردات الحضارة - فكيف جاء الشّعر الجاهلي.. مُناقضا لهذه البديهية ، لو كان ناتجا عن لغة وُجِدَت بالنّمُو في بيئَةٍ فقيرة - فقيرة بالّلغة وفقيرة بالمعاني ، إذ المعاني تتبع المُستوى الحضارى ، فكُلما كانت البيئة ذات حضارة راقية كانت معانيها أغزر ، وكلما كانت البيئة فقيرة بمُفردات الحضارة كانت معانيها أنزر؟.

جاء الشعر الجاهلي مُناقضا لهذه البديهية ، لأن لغته هي لغة ألهمها الله تعالى العرب ، لكي تُشرف بحمل القرآن الكريم ، وألهم أهلها في البادية ، المعاني الشعرية الراقية (التي لا تصدر عادةً إلا عن حضارة ، لا بدواة) ، لكي يصل العرب في مُستوى المعاني والتفكير إلى ما يجعلهم أهلا لفهم القرآن الكريم ، وَحَمَلِ رسالة الإسلام العظيم.

- وإن ما يدعيه علماء الطبيعة من «الطفرة» تحدث أحيانا ، وهم يلجأون إليها لتفسير ما لا يجدون له تفسيراً ليس دقيقاً ، فالطفرة لا وجود لها في حركة الحياة ﴿الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَرَهُ تَقْدِيرًا﴾ [الفرقان: ٢].

- ولهذا.. فما كان يمكن (من باب الفرض التوضيحي) أن ينزل القرآن المعجز بفصاحته وبلاغته ، على أمة ليست ذات فصاحة وبلاغة ، وليست ذات أدب على مُستوى عالٍ من الفصاحة والبلاغة ، إذ كيف تقفز عقولهم قفزاً إلى فهم القرآن ، ما لم يتعودوا على فصاحة وبلاغة ، هما خطوة ضرورية لصعود سُلم الفصاحة والبلاغة إليه؟
- لا شك أن القرآن المعجز يعلو الشعر الجاهلي بثلاث درجات في الفصاحة والبلاغة ، كما أسلفنا القول ، ولكن ، لا شك أن العرب لن يفهموه لو كانت المسافة بينه وبين لغتهم عَشْرَ درجات مثلاً.

- بل كيف «يقفز» وجدانهم قفزاً إلى «تذوق» جمال القرآن ، لو لم يكن لديهم شعراً راقٍ ، ولد في البادية ، ووصل عن طريق الأسواق الأدبية إلى مكة المكرمة ، شعراً راقٍ هذب وجدانهم ، وصقل أذواقهم ، بحيث أصبحت قادرة على تذوق ما في القرآن من جمالٍ عالٍ ، يملأ النفس متعة وروحانية؟

- وبهذه المناسبة نتذكر إنكار طه حسين (ت ١٩٧٣م) في كتابه «في الشعر الجاهلي» صحة نسبة هذا الشعر العظيم إلى الجاهلية !! ومع أن الأدلة التي تنقض رأى طه حسين هذا.

كثيرة، غير أن هذا السياق ليس مجال إيرادها، لذا فإننا نكتفى بذكر ما نبّه له السياق، وهو أن القرآن المُبين يستحيل أن ينزل على أمة ليست بذات بيان رفيع، ولن يوصف بيانها بأنه رفيع حقا، إلا إذا كانت ذات أدب رفيع (وأدبها الرفيع هنا هو الشعر)، لأنّ الطفرة في الحياة غير معروفة، تبعاً لما اقتضته سنة الله تعالى في الكون، كما نوهنا بذلك آنفاً. فإنتكار طه حسين - بسبب هذه العلة وحدها - يصبح إنكاره «تافها» قلّد به أستاذه المستشرق - مَرّجليون - فكيف، إذا ضمّت لها أكثر من عشرٍ عللٍ أخرى؟.

- وإن كون الشعر هو الفن العظيم الوحيد، الذي عرفه العرب في الجاهلية يقودنا إلى تساؤل هو: لماذا لم يكن للعرب عراقية في النثر كما كانت عراقيتهم في الشعر؟ بل لماذا لم يكن لديهم فنٌ روائى (وهو فنُّ القصة الطويلة) كما كان لديهم فن الشعر؟

- الجواب هو: لم يكن لديهم نثرٌ فنّيٌّ كرقبي الشعر، لأن النثر مهما كان راقياً، لا يصل في دسامته الفنية إلى مستوى الشعر الراقى، لأن الشعر هو مزيج من الوجدان الموهوب، ومن العقل والخيال، ونصيب الوجدان فيه والخيال.. كبير، وأما النثر، فنصيب العقل فيه عادة يكون أكثر من نصيب الخيال والوجدان، مما أقلّ تأثيراً في النفس البشرية وإغناء^(١) للوجدان من الشعر، ولهذا لم يكن لازماً ليكون مهاداً لا غنى عنه لفهم القرآن والتأثر بجماله، خلافاً للشعر لما ذكرنا له من خصائص.

أما الرواية (القصة الطويلة)، فهي أقلُّ لزوماً من النثر الفنى، على أنه غير لازم، لأن الرواية، عادة تعتمد على التخطيط العقلي، لأحداثها وشخصياتها، ولبدائيتها ووسطها ونهايتها، وما يهدف إليه الروائى منها، أما لغتها، فغالباً ما تكون بسيطة غير غنيّة بالخيال، (على مستوى التشابيه والاستعارات والكنيات)، غير غنيّة بكثافة التعبير المؤثر في الوجدان (العواطف والمشاعر والأحاسيس)، لأن من طبيعتها أن تكون كذلك.

(١) «إغناء» أكتيها دائماً بألف منونة بتنوين الفتح بعد الهمزة. لأنها لا تختلف في صورتها ووزنها عن مثل «إنجازاء» أو «إرجاء» فالزاء والعين حرفان صحيحان. والهمزة حرف صحيح مثلها، فلماذا نورد الألف المنونة بعد مثل الزاي والعين ولا نوردها بعد الهمزة؟ ليس لذلك علة معقولة. إنهم يقولون أن أصل الهمزة ياء، لأنها من بني يبنى، والياء من حروف العلة والألف التي تسبق الهمزة حرف علة، فإذا وضعنا بعدها ألفاً توالى ثلاثة حروف علة والعربية تنفر من توالي الأمثال.

وهذه علة لا منطوق فيها، لأنه لو ورد حرف العلة نفسه وهو الياء، وليس ما انقلب إليه وهو الهمزة لأثبتناه قتلنا: «بنايا» فكيف تثبته - لو اعتمدنا وروده. وهو جائز - ولا تثبت ما انقلب إليه، والأصل أقوى من البديل، خاصة أن هذا البديل ليس في صوته أنه حرف علة؟ هذا إصلاح إملائي واجب.

- هنا.. قد يقال: لكن ظروف الجزيرة العربية الفقيرة بتنوع المناظر، الفقيرة بمظاهر الحضارة، هي التي منعت من وجود الفن الروائي فيها، فأجيب: بأن ذلك صحيح، لأن الرواية تحتاج - لوجودها - إلى بيئة غنيّة بالمناظر، غنيّة بالحضارة، لهذا لم توجد الرواية في الغرب إلا في القرن الثامن عشر للميلاد، ولم توجد في البلاد العربية إلا مع مطلع القرن العشرين.

- كل ذلك صحيح، ولكن لو كان الفن الروائي مهادا طبيعيا لنزول القرآن الكريم، لهيأ الله تعالى الجزيرة العربية لتكون على مستوى من غنى المناظر ومن غنى الحضارة يسمحان، بل يدفعان إلى وجود الفن الروائي ولكن، لأن هذا الفن ليس ضروريا لنزول القرآن - كمهاد له - جعل الله تعالى الجزيرة العربية على ما كانت عليه، وجعلها مؤهلة بسبب وجدان البدوي المُرْهَف، وخياله اللَّمَّاح، لقول الشعر الرُّفِيع الذي لا بد منه، لكي يكون مهادا للقرآن المعجز البيان، حتى يفهم العرب ويتذوقوا بيان القرآن الذي «يعلو ولا يُعلَى عليه».

- وبعد؛ فهذه أدلة عامة على أن اللغة العربية إلهام، وليست ناتجة عن اصطلاح ومُواضعة. وهناك أدلة خاصة «نابعة» من خصائص هذه اللغة، تؤكد ما وصلنا إليه تأكيدا لا يدع مجالا للشك في كونها إلهاما، ولكن هذا مُرْجَأُ إلى مقالة لاحقة إن شاء الله تعالى.

- ويبقى سؤال هام سنجيب عليه في المقالة اللاحقة، وهو: ما رأى علماء اللغة القُدَامِي في أمر هذه اللغة الشريفة، إلهام هي أم مواضعة واصطلاح؟ فأجيب على ذلك في البحث الآتي.. إن شاء الله تعالى.

الموضوع الثاني

في فقه العربية وبلاغتها؛

أقوال اللغويين العرب القدامى في العربية

فزية اللغويين الغربيين بأن العربية.. سامية^(١)

يقول الدكتور صبحي الصالح: «فإذا استثنينا رأى هذا العبقري - ابن جنى - الذى سبق إلى القول بوضع اللغة.. واستثنينا أيضا آراء من تابع ابن جنى على هذا المذهب السديد، وجدنا أئمة العربية الباقين، يكادون يطبقون على أن اللغة (يقصد العربية) إلهام وتوقيف»^(٢).

ويقول الدكتور صبحي أيضا: «أما مباحث القوم حول أصل اللغة: إلهام هي أم اصطلاح؟ فكانت ذات وجهين.. كلاهما يخرج عن المنهج الوصفي، ثم يتلون باللون المناسب له، أما أحدهما فغيبى «ميتافيزيقي» لا يخلو من سذاجة، كقول ابن فارس: (إن لغة العرب توقيف، ودليل ذلك قوله جل ثناؤه: ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾^(٣) فكان ابن عباس يقول: علمه الأسماء كلها، وهي هذه التى يتعارفها الناس، من دابة وأرض، وسهل وجبل وحمار، وأشباه ذلك من الأمم وغيرها..). وأما الآخر: فمنطقى فى تعابيره واستنتاجاته، لتأثره بالعلاقة بين اللفظ ومدلوله»^(٤).

أقول: قول صبحي الصالح عن الرأى الأول، بأنه لا يخلو من سذاجة.. فهو رأيه الشخصى المتأثر بما قاله علماء اللغة فى الغرب عن أصل اللغات، وليس هو أول من استسلم لآراء الغربيين، وسيتبين خلال هذه المقالة والتى تتبعها، أن هذا الرأى الأول هو

(١) كتبت سنة - ٢٠٠٥م.

(٢) دراسات فى فقه اللغة، ٢١ دمشق، مطبعة جامعة دمشق، ١٩٦٠م.

(٣) المرجع السابق، ١٧، ورأى ابن فارس وارد فى كتابه «الصحبى فى فقه اللغة وسنن العربية فى كلامها» ٥/ القاهرة، المكتبة السلفية، ١٣٢٨هـ، ثم الزهر فى علوم اللغة وأنواعها، ٣، القاهرة، دار إحياء الكتب العربية، د.ت.

الرأى الصواب، وأن اعتبره للرأى الثانى بأنه منطقى فى تعابيره واستنتاجاته، هو تأثر برأى الغربيين أيضا، وسيبين خلال هذه المقالة والتى تتبعها المقالات، خطأ هذا الرأى، فى تطبيقه على العربية الفصحى خاصة.

ولكن، قبل أن ننتقل فى مقالة لاحقة إلى «خصائص العربية» المتميزة - بوضوح - عما فى اللغة الإنجليزية من خصائص والمقارنة بينها وبين العربية، لأنها أسير اللغات اليوم، قبل هذا، لابد من أن نُسقط «فريّة» قال بها علماء نقوش لغوية من الغربيين.

هذه الفريّة هى أن اللغات التى وُجدت فى الجزيرة العربية، وفى العراق، وبلاد الشام «سورية والأردن وفلسطين ولبنان» إنما هى لغات «سامية»، وأنها انبثقت عن أصل لغوى واحد، هو اللغة «الأم»، وهذه اللغات هى: العربية الجنوبية، والعربية الشمالية «فى شبه الجزيرة العربية»، والأكدية «فى العراق»، والكنعانية وفروعها «فى سورية الطبيعية»، والآرامية وفروعها «فى جنوبى سورية الطبيعية».

وقد سموها «اللغات السامية» نسبة إلى ما ورد فى التوراة «فى سفر التكوين - الإصحاح العاشر» من أن أبناء نوح عليه السلام هم: سام وحام ويافث، وأنه من سلالتهم تكوّنت القبائل والشعوب^(١).

وإنه لمعلوم أننا نحن - المسلمين - لا نأخذ بما ورد فى التوراة من الأخبار، إلا بما يماثل ما ورد فى القرآن الكريم أو الحديث النبوى الشريف، لقول رسولنا صلى الله عليه وسلم: «لا تُصدّقوا أهل الكتاب ولا تُكذّبوهم، وقولوا آمنا بالله وما أنزل^(٢)».

ورواية أن ساما وحاما ويافث، هم أبناء نوح عليه السلام، روى فيها حديث ضعّف بعض رجاله البخارى ويحيى ابن معين رحمهما الله، ونصه: عن أبى هريرة رضى الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «ولد نوح سام وحام ويافث، فولد سام العرب وفارس والروم، والخير فيهم، وولد يافث يأجوج ومأجوج والترك والصقالبة، ولا خير فيهم، وولد حام القبط والبربر والسودان» (رواه البرزاري، وفيه محمد ابن يزيد ابن سنان الرهاوى، عن أبيه محمد.. وثقه ابن حبان. وقال: أبو حاتم صدوق، وضعّفه يحيى ابن معين والبخارى،

(١) انظر المرجع السابق (دراسات فى فقه اللغة) - ٣٦.

(٢) صحيح البخارى ٩٥٣/٢.

ثم يزيد ابن سنان، وثقه أبو حاتم فقال: محلّه الصدق، وقال البخارى: مُقارب الحديث، ولكن ضَعَفه يحيى وجماعته^(١).

وما ورد فى كتب التاريخ، كتاريخ الطبرى والمسعودى، وابن خلدون غير مُوثَّق، لأنه مأخوذ من مثل هذا الحديث السابق الضعيف، ومن التوراة كما سبق، وهذه الكتب التاريخية، محشوة بالخرافات عن نشأة الأقوام السَّابِقة، وعن تسلسل أنسابهم، فأقوالهم تخمينية أو أقرب إلى الرجم بالغيب، وإلا فأى كتاب وجدوه معتمدٍ فى أنساب الأمم؟ ونتيجة هذا.. أن تسمية لغات هذه البلدان التى سبق ذكرها «باللغات السامية» إنما هى فِرْيَةٌ لا تقوم على أساس، وكل الذين اصطَلحوا على هذه التسمية هم غربيون^(٢) من علماء النقوش اللغوية. (راجع تفصيل ذلك فى بحث سابق هو: فرضية الشعوب السامية واللغات السامية - فرضية خرافية).

فالأقرب إلى القبول - كما أرى - أنها فى معظمها شعوب عربية، مهدها هو الجزيرة العربية، ثم خرجت منهم موجات إلى البلدان القائمة شمال الجزيرة العربية، كالعراق وسورية الطبيعية، بحثًا عن الخصب، وسعة العيش، أما النسب إلى آدم أو نوح عليهما السلام، فرجم بالغيب. وقد يكون بيننا وبينهما مليون سنة!

- أما زعمهم بأن لغات هذه الشعوب العربية، ترجع إلى لغة «أُمَّ» اثبتت عنها هذه اللغات، فزعم ليس عليه ولا دليل واحد، كما سُنِّبَين من خلال عرضنا لما ورد فى كتاب الدكتور محمود حجازى عن اللُّغة:

١ - يقول الدكتور محمود فهمى حجازى: «فعندما يقال: بأن العربية والآرامية لغتان ساميتان، فالقصود أن اللغتين من أصل واحد، وأنهما تطورتا عن لغة واحدة هى اللُّغة السامية الأولى، وقد افترض العلماء وجود هذه اللُّغة فى عصور مغرفة فى القدم، لتفسير انتماء اللغات العربية والآرامية والحبشية.. الخ»^(٣).

(١) انظر مجمع الزوائد ١٩٣/١، وإن الواقع لا يصدق هذا الكلام، فهل صحيح أن الخير فى العرب والفُرس والروم؟ وإن التُّرك والصَّقالبة لا خير فيهم؟ ثم إن علم السُّلالات البشرية لا يجمع بين العرب والفُرس والروم فى عرق واحد، بل الروم غربيون، والفُرس شرقيون، والعرب جنس بشرى قائم برأسه. (راجع: تفصيل ذلك فى بحث سابق هو: فرضية الشعوب السامية - واللغات السامية - فرضية خرافية).

(٢) انظر محمود فهمى حجازى، علم اللُّغة العربية، مدخل تاريخى مقارن فى ضوء التراث واللُّغات السامية، ١٣٩.

(٣) المرجع السابق، ١٢٠، وانظر فيليب حتى-تاريخ العرب ٩/١ الذى يشك فى أن الجزيرة العربية أصل السَّاميين. ومع صحة شكّه - عندى - فهو ما يزال يظنُّ أن ثمة شعوبا سامية، وهذه ليست أكثر من خرافة.

- لاحظ قوله: «وقد افترض العلماء..» فالأمر مجرد افتراض لا دليل عليه -ألبتة، أى هو رجم بالغيب، والأقرب إلى القبول -كما أرى- أن اللغات التي قامت في بيئة واحدة أو بيئات متقاربة، جرى بينها تقارض فى الألفاظ، وقواعد الصيغ، أى الصرف، وأحيانا فى حركات الإعراب، وفى الأصوات، لأن البيئة الواحدة لها دخل كبير فى تكوين جهاز النطق عند الإنسان، بحيث يستطيع أهل بيئة، نطق أصوات لا يستطيع نُطقها أهل بيئة مختلفة، أما ترى أن غير أهل البلاد العربيّة، لا يستطيعون نطق العين والحاء.. مثلا، كما ينطقها العربي؟

أما العلماء الذين ذكرهم حجازى.. فكلهم علماء غربيون والغربيون الذين أخرجوا الدين من «تفسير» الحياة على الأرض، لا يخطر ببالهم، ولا يستسيغون أن يفسروا قيام لغة ما، على أساس الإلهام! فإذا أضفت إلى ذلك أن معظم الغربيين «مستشرقين وغير مستشرقين» يتبنون موقفا معاديا للإسلام، ولهذا.. فهم يرفضون أن تكون لغة القرآن الكريم «إلهاما» لأنهم، لو قبلوا هذا الرأى لكانوا فى هذا، قد اعترفوا بأن القرآن الكريم كتاب منزل من عند الله تعالى، وربما أنه آخر كتاب، «هكذا يقودهم المنطق» فهو أحدث كتاب، وإذن فلا مناص من الإيمان به من كل من لا يكابر، ولا يجادل بالباطل ليدحض به الحق، وهذا ما لا يريدون، بل هذا ما يفرّون منه فرارا. وحكاية (العلماء) هذه يتكى عليها المؤلفون لإقناع الناس بأرائهم. والعلماء هؤلاء ليسوا أكثر من مُنجمين، فى مثل هذا الموضوع.

٢ - ويقول حجازى: «إن قارن أحد اللّغة الأردية باللّغة الفرنسية، لم يستطع أن يتبين أوجه شبه يذكر، ولكن أوجه الشبه تتضح بمقارنة اللّغات الفرنسية والإيطالية والأسبانية والرومانية، «لأنها» ترجع إلى أصل واحد هو اللاتينية»^(١). أقول: لماذا تتضح أوجه الشبه بين هذه اللّغات؟ الجواب واضح؛ لأنها ترجع إلى أصل واحد معروف، هو اللاتينية، واللاتينية لغة معروفة بكل تفاصيلها: ألفاظا وأصواتا وصرفا ونحوا، وهناك من يدرسها الآن، ويتخصص فى علومها.

-أُقّياس - لأن - عليها ما لا يستطيع هؤلاء العلماء الغربيون أن يجدوا له أثرا، ولو كان جملة واحدة؟ اللاتينية، حقيقة ماثلة، أما ما زعموه من لغة «أم» للغات البلدان العربيّة.. فرجم بالغيب، وافترض قاد إليه ما ذكرناه فى الرقم السابق، من موقف الغربيين من الدين، والدين الإسلامى خاصة. وبأن خطأه فى مبحث خرافة الشعوب السامية، واللغات السامية الذى أشرنا إليه أكثر من مرّة.

(١) المرجع السابق، ١٢١.

٣ - ويقول: «أصوات الحلق.. وأصوات الإطباق.. وهى أصوات تشترك فى سِمة واحدة» يعنى أصوات الإطباق» الواقع أن هاتين المجموعتين موجودتان بدرجات مُتفاوتة فى اللغات السامية المختلفة، فليست كل لغة سامية تضم كل الأصوات الحلقية والمطبقة، الموجودة فى العربية^(١).

- أقول: إن كون اللغات التى كانت قائمة فى البلاد العربية، لا تضم أيُّ منها كل أصوات الحلق والإطباق الموجودة فى العربية يؤدى إلى نتيجتين: الأولى: أن اللغات ذات البيئة الواحدة، يسهل تفهم اشتراكها فى بعض الحروف الصعبة فى النطق كحروف الحلق وحروف الإطباق كما أشرنا فى الرقم الأول.

والثانية: أن تفوق العربية على لغات المنطقة الأخرى بكثرة حروف الحلق والإطباق، يشير إلى «فرادتها» بين هذه اللغات، وتفوقها عليها.

وإن اشتراكها مع لغات المنطقة ببعض حروف الحلق والإطباق وتفردا ببعض حروف الحلق والإطباق لا يضعف من رأى القائل بأنها لغة إلهامية، لأن الله تعالى أراد للأشياء جميعا أن تحدث فى إطار سياق واقعى، فليس فى الحياة طفرات، فى أى شيء، وما يفسره العلماء من الأمور المادية بأنه طفرة، إنما هو تعبير عن عجزهم عن أن يجدوا تفسيراً مادياً مقبولاً، فيلجأون إلى هذا التفسير الذى هو فى حقيقته «لا تفسير». بل - إن كل لغات الدنيا تشترك فى نسبة كبيرة من الأصوات - خلا أصوات الحلق.

- وأقول: أما كان الله تعالى قادراً على أن يجعل رسولنا محمداً صلى الله عليه وسلم، ينتقل عند الهجرة من مكة المكرمة إلى المدينة المنورة فى بعض ليلة، كما كان فى حادثة الإسراء والمعراج؟ بلى كان قادراً! ولكنه لم يشأ، جلّت قدرته، ذلك لأن مشيئة الله قضت بأن تتم الأشياء - ما عدا المعجزات - من خلال تفكير وتدبير وتخطيط وزمن وعمل. أما كان الله تعالى قادراً على أن يهلك كفار قريش فى لحظة عندما تراوأ لجيش الرسول الأعظم صلى الله عليه وسلم، فى معركة بدر؟ بلى، ولكن لم يشأ للسبب السابق نفسه، وهكذا..

- إذن.. بديهى أن الله تعالى كان قادراً على أن يجعل اللغة العربية تخالف فى خصائصها كل خصائص لغات المنطقة، ولكنه لم يشأ للسبب السابق، بحيث لا تأتى العربية «طفرة» بل تكون مندمجة فى السّياق العام للغات المنطقة، بل للغات العالم فى كثير من أصوات الحروف، وفى بعض الألفاظ وبعض الخصائص الصرفية، وفى بعض

(١) المرجع السابق، ١٤٠.

الخصائص النحوية، وخصائص التركيب، ثم تعلق عليها، بعد هذا فيكون لها تفوقها في كثرة المفردات، وفي ثراء الاشتقاق الذي تتولد منه مئات الآلاف من الألفاظ، قبل أن يرث الله تعالى الأرض ومن عليها، وتفوقها في بناء الجملة التي يساعد في مرونتها على هذا النحو المحكم الإعراب، والإعراب المضطرب ميزة من مزايا العربية.

- وبهذا الاندراج لا تكون طفرة، وبهذا العلو تكون ذات بيان رفيع، وتكون قادرة على حمل القرآن الكريم إلى العرب أولاً، ثم إلى العالم أجمع، ثانياً-وشيء بديهي في العقول أن المعنى الكونى الذى يصلح لكل زمان ومكان، لا تحمله إلا لغة منفردة في خصائصها، تعلق على لغات البشر، ولن تعلق على لغات البشر إلا إذا كانت من ربّ البشر، لأن اللغات البشرية تنتقل من حالة إلى حالة بلا استثناء، خلال بضعة قرون، بحيث لا يفهم اللاحق السابق إلا عن طريق الترجمة، واللغة الإنجليزية من أوضح الأمثلة على ذلك، فشاعر الإنجليز العظيم «شكسبير» لا يفهمه الإنجليز اليوم إلا بالترجمة. وليس بينهم وبينه إلا أربعة قرون. أما العربية فشعرها فى الجاهلية فنهم معظمة اليوم، مع الاستعانة أحياناً بالمعجم، انظر إلى معلقة زهير ابن أبى سلمى التى ما يزال كثير من المثقفين يرددون حكّمها، وانظر إلى عمر ابن أبى ربيعة الذى عاش فى القرن الهجرى الأول، وإلى سهولة شعره حتى لتخلط بين شعره وبين الشعر الغزلى لنزار قبانى الذى مضى قبل بضع سنوات.

بل إن المسلم الذى لم يتجاوز فى تعليمه الصف السادس، ولكنه قد بلغ الرشد يستطيع أن يقرأ القرآن ببسر وسهولة، ﴿وَلَقَدْ يَتْرَأُ الْقُرْآنَ الَّذِي لَهُمْ مِنْ مُّذَكَّرٍ ﴿٢٢﴾﴾ [القمر: ٢٢] وبيننا وبين نزول القرآن أربعة عشر قرناً، ونيفاً.

- وهذا شيء لم تحظ به أى لغة على وجه الأرض - حاشا العربية - هذه اللغة الشريفة التى شرفها الله تعالى مرتين، إذ كانت إلهاما من عنده تعالى ألهمها العرب، وإذ أنزل بها القرآن الكريم، فشرّفها بنزوله لها.

ومثل لغات البشر، فكر البشر، فكل فيلسوف مثلاً، يموت من فكرة شيء ويبقى شيء، لأن الفيلسوف يحكم تفكيره الزمان والمكان، ففلسفته نابعة منهما، والزمان والمكان متغيران، ولذا تتغير جوانب كثيرة من فلسفته، ولا يبقى إلا ما هو مشترك بين الفطر البشرية، وهو هذا الذى يتجاوز الزمان والمكان.

ومن هنا فتصوّر أفلاطون اليونانى لجمهوريته خضع لزمانه ومكانه، وفى إطارها كان مجتمعه مقسّما إلى أربعة طبقات: الحكّام والأشراف والفلاسفة طبقة، والجند طبقة، والفلاحون طبقة، والعبيد هم الطبقة الرابعة. وهكذا جاء تصوّره لجمهوريته ولكن هذا التصور لم يطبق فى الواقع لأن الحياة البشرية تجاوزته، ولما فى بعض جوانبه من الخطل كالإباحية الجنسية. وجمّع الصغار فى محاضن، فلا يعرف طفل أمه، وإنما ترضعه أيّ امرأة وهل ينشأ مثل هؤلاء إلا قساة عدوانيين؟

والمنطق الصورى الذى بناه أرسطو «تلميذ أفلاطون»، ومخالفه فى اتجاه الفكر، فأفلاطون مثالى وأرسطو واقعى يؤمن بالمحسوس»، هذا المنطق قد تجاوزه الزمن لأن المنطق الأجدر أن يؤخذ به هو المنطق النابع من الأشياء ذاتها، فى ضوء العقل هذا فى منظور بعض الفلاسفة الغرب، أما فى منظور الإسلام فهو المنطق نفسه، ولكن، مع إضافة هامة وهى جريان كل ذلك فى ضوء نصوص الإسلام، وإذا لم توجد النصوص ففى ضوء مبادئ الإسلام. لأن القرآن هو (العقل الكلّى)، وعقل الإنسان هو (العقل الجزئى) - وكلاهما من الله العليم الحكيم، فهما لا يتناقضان، وإن كان العقل الكامل لا خطأ فيه، أما العقل الجزئى فقد يخطئ - لما أراد الله الحكيم من عدم الكمال فى طبيعة الإنسان^(١).

ومثل أفلاطون وأرسطو كل الفلاسفة المحدثين، فماذا تبقى من وجودية «سارتر» الفرنسى؟ هذه الوجودية التى ترى أن الإنسان هو الذى يصنع قيمته ومستقبله، غير مقيد نفسه بأى قيمة أو عرف سابق؟ أقول: والفرد ليس وحده ليضع حياته وحده إذن.. كل هذا هو فكر غير ثابت بلغة غير ثابتة.

-ولكن حقائق الدين ثابتة لا تتغير، فلا بد من لغة ثابتة لا تتغير ولن تكون كذلك إلا إذا كانت بإلهام من الله تعالى، لها خصائصها الباقية على الزمن: قد يقال: ولكن العربية طرأت فيها ألفاظ جديدة، غالبا عن طريق قانون الاشتقاق، ومعان جديدة لألفاظ قديمة، واستعملت «المعرب» وبعضه ورد فى القرآن الكريم، فكيف تعدّها ثابتة؟

- والجواب: أنها ثابتة فى قوانينها العامة، فقوانين فى توليد الكلمات الجديدة «الاشتقاق» ثابتة، وقوانين تطور معانى الألفاظ ثابتة، إذ لا بد من علاقة معقولة بين المعنى القديم والمعنى الجديد للكلمة. وقوانين التعريب ثابتة، وما هو أهم من هذا كله، فهو ثابت،

(١) انظر: تفصيل ذلك فى كتابى (النداء الحق) - ١/٢٣-٤٦ فقد فصلت ذلك، تحت عنوان (تأصيل).

وهو «النحو» الذى يضبط قواعد التركيب، من ناحية، ويضبط حركات الإعراب من ناحية أخرى. ثم يكون من ذلك ما لا يحصى من التعابير.

- وبهذا فلا يفقدها شخصيتها ما يجدُّ من ألفاظ ومعانٍ للألفاظ، ومن مُعَرَّب، لأن الأصول ثابتة يسهل رَدُّ الفروع إليها، ولأن النحو يحفظ لها كيانها العام من التغيير والانتقال إلى كيان آخر.

هذا معنى «ثباتها» وهذا (بما يقوم عليه من قوانين) لا تجده بتمامه. فى لغة أخرى، ولهذا تتحول اللغات الأخرى من كيان إلى كيان آخر، خلال بضعة قرون وسنقارن بين العربية والإنجليزية فى مقالات لاحقة، وإن قولى بثبات العربية لثبات معانى القرآن الكونية - هو رأى لم يردِّ فى كتاب سابق.

٤ - ويقول حجازى: «وهناك لغة سامية فقدت أكثر أصوات الحلق، وهى اللُّغة الأكادية فى العراق القديم، ولذا لم يبق فى اللُّغة الأكادية من أصوات الحلق إلا صوتان حلقيان هما: الهمزة والخاء، فقد حدثت فى هذه اللُّغات تغييرات قللت عدد أصوات الحلق. أما اللُّغة العربية فقد احتفظت بالمجموعة كاملة، ولذا تُعدُّ العربية من هذا الجانب امتدادا مباشرا للغة السامية الأم»^(١).

- أقول: لاحظ أن العربية الفصحى، لم تقمُّ إلا قبل مجيء الإسلام بقرنين فقط، أى: فى منتصف القرن الرابع الميلادى، فكيف تحتفظ بأصوات الحلق التى وجدت فى اللُّغة السامية الأم «المزعومة» ذات القدم السحيق؟^(٢)

إن الدكتور حجازى لا يبسط هنا رأيه الشخصى - شأنه (للأسف) شأن كل علماء العربية الذين تقبلوا آراء المستشرقين بلا نقاش، بل - للأسف مرة أخرى - اكتفوا بأخذ آرائهم، ولم «يتفكروا» فيها، وإنما يبسط وجهة نظر علماء النقوش اللغوية الغربيين، وهؤلاء عرفت رأينا فيهم.

- إن بين قيام الأكادية والعربية ستة وثلاثين قرنا، أعنى أن الأكادية عرفت فى شمال العراق قبل الميلاد باثنين وثلاثين قرنا^(٣)، أما العربية فلم تعرف إلا فى منتصف القرن الرابع الميلادى، وكانت الأكادية مكتوبة، فلو صحَّ زعم الغربيين من أن هناك لغة سامية أمًا، لكان المعقول أن اللغة التى تحتفظ بأصواتها هى الأكادية، وليس العربية.

(١) علم اللغة العربية - حجازى - ١٤١.

(٢) راجع تفصيل ذلك فى (التمهيد).

(٣) انظر المرجع السابق، ١٥٧.

- أولا: لِقدم الأكاڤيية: وثانيا، لأن الأكاڤيية لغة مكتوبة، واللغة المكتوبة أقدر على حفظ الصوت من التغيير من اللغة غير المكتوبة، لأن الأصوات فى اللغة غير المكتوبة عرضة للتغيير السريع، فليس لها رمز يضبطها. أما الحرف... فهو عاملٌ مهمٌ فى حفظ الصوت دون تغيير، أو -دون تغيير يُذكر - على الأقل.

- أما الرأى القائل بأن اللغة العربية الفصحى قديمة، فرأى ليس عليه ولا دليل واحد، لأنها لو كانت قديمة، فى مكة المكرمة والمدينة المنورة لكانت مكتوبة، منذ زمن الأكاڤيية على الأقل، أى قبل ستة وثلاثين قرنا أو حولها، قبل ظهورها فى الشعر الجاهلى، وهذا ما لم يكن. ويستحيل أن تعيش لغة ستة وثلاثين قرنا، ولا تخترع أو تستعار - لها - حروف تكتب بها.

هذا دليل أول على أنها ليست قديمة، أما الدليل الآخر، فلو كانت قديمة، لَحُفظ شيء مما قيل فيها من شعر، على توالى العصور، ولو مقدار ألف بيت على الأقل من كل قرن، ولو على شكل مقطعات صغيرة يسهل حفظها. ما بال العرب حفظوا المعلقات، وحفظوا عشرات الآلاف من أبيات الجاهلين الثانية التى سبقت الإسلام. ولم يحفظوا شيئا من الجاهلية الأولى، لو كانت الفصحى هى لغة هذه الجاهلية الأولى؟! هذا القطع المفاجيء مستحيل.. فى الطبايع البشرية.

- وبعد، فلقد أوردنا فى هذه المقالة أربعة أدلة تُثبت أن الزعم بأن اللغات القديمة فى هذه المنطقة هى لغات «سامية» لهُوَ محضُ فِرْيَةٍ فإذا أضفنا إليها كل الأدلة التى «فندنا» بها خُرافة فرضية الشعوب السامية، واللغات السامية، فى مبحث (التمهيد) - تبين لنا أنها مجرد لغات متقاربة فى خصائصها، لأنها لغات بلدان متجاورة يسهل أن تطبع هذه البلدان الإنسان بطبايع وطوايع متقاربة تجعل جهاز النطق لدى أفرادها متشابهها - وأن الزعم بأن العربية الفصحى قديمة، وأنها لغة سامية قريبة من اللغة الأم السامية المزعومة بخصائصها، فهو محضُ فِرْيَةٍ أيضا، ليس عليها، ولا دليل واحد.

ولدينا أدلة أخرى سنوردها فى مقالة لاحقة إن شاء الله تعالى، لكى يبين الحق وتنقمع تُرهبات الباطل. وبالله العليم الحكيم نستعين.

الموضوع الثالث

ليس هناك من لغة سامية أم للغات المنطقة^(١)
العربية الفصحى لغة إلهامية، وقامت قبل الإسلام بقرنين فقط

في المقالة السابقة أقمنا أربعة أدلة تُبيِّن أنه ليس من لغة سامية «أم» للغات القديمة في المنطقة العربية، لأن الزعم بأن نوحا - عليه السلام - كان له ثلاثة أبناء هم: سام وحام ويافت - ومن سام جاء مصطلح السامية) - ليس عليه ولا دليل واحد يُوثق به. ومثله الزعم بأن العربية الفصحى، لغة ضاربة في أعماق التاريخ القديم، وأنها أقرب اللغات السامية إلى هذه اللغة الأم السامية. فالعربية، في الحق لا يزيد عمرها على مئتي سنة قبل الإسلام، وفي هذه المقالة سنضيف الأدلة الثمانية الآتية:

ونحن نأخذ هذه الأقوال التي نعلق عليها من كتاب الدكتور محمود فهمي حجازي، الذي جاء ما فيه من معلومات مما زعمه علماء النقوش اللغوية الغربيون، في موضوع ما سمَّوه (اللغات السامية):

١ - يقول الدكتور حجازي: (. تظهر عروبة «النَّبِيط» من استخدامهم اللغوي، فهناك ألفاظ تأتي بمعانيها العربية في نقوشهم مثل: «آل» للدلالة على الانتماء العربي القبلي) - ولد (بمعنى أبناء) - آخر (بمعنى ذرية) - ضريح (بمعنى حجرة) إحدى (بمعنى واحدة) - غير (بمعناها العربي الحالي)، والأفعال: هلك - صنع - لعن (بمعناها في العربية)^(٢).

- أقول: ظاهر هذا القول، أنه ينصر زعم علماء النقوش الغربيين، بأن العربية الفصحى «أقدم مما أنا قلته آنفا، لأن لغة الأنباط لم تتوقف عن الحياة إلا مع أواخر القرن الثالث الميلادي».

- بيِّد أن الحقيقة غير ذلك، لأن وجود ألفاظ من العربية الفصحى في لغة الأنباط - بمعناها في الفصحى أو بمعانٍ مخالفة - لا يعني بحال من الأحوال، بأنها مُشتقة

(١) كتبت سنة - ٢٠٠٥م.

(٢) حجازي: علم اللغة العربية - مدخل تاريخي مقارن، في ضوء التراث واللغات السامية - ١٨٢.

وانظر صفحة ٢٠٩ - ٢١٢.

من الفصحى، لأنها - أولاً: (لهجة آرمية كتبَ بها النبط نقوشهم حتى أواخر القرن الثالث الميلادي)^(١).

وثانياً - لأن أمامي كتاباً «عنوانه: (اللغة العربية - أصل اللغات كلها)^(٢) - يعتبر (كما يظهر من عنوانه) أن اللغة الإنجليزية مُشتقة من اللغة العربية، وقد أشرت إلى مضمونه سابقاً. ومع أني لا أرى ذلك (وأن كل ما أقوله هو ردُّ عليه). غير أن فيما أورده من مفردات «متشابهة» بين العربية والإنجليزية ما «يؤكد» أن وجود عشرات الكلمات بل وجود مئاتها متشابه بين لغتين لا يعنى بحال من الأحوال، أنهما لغتان ترجعان إلى أصل واحد، أو أن إحداهما أصل الأخرى، فكما تتشابه كثير من أفكار الاقتصاد الاشتراكي (الشيوعي) مع أفكار كثير من الاقتصاد الرأسمالي، مع أفكار كثيرة من الاقتصاد الزكوي (الإسلامي) كذلك تتشابه أفكار في كل اللغات، وهذا التشابه الاقتصادي دفع عالماً إسلامياً هو المرحوم مصطفى السباعي ليؤلف كتاباً عنوانه: (اشتراكية الإسلام). وهذا غير دقيق - لأن الإسلام يقوم نظامه الاقتصادي - أصلاً - على طلبِ رضى الله تعالى، عن طريق السعى إلى مصلحة الجماعة أولاً، ومصلحة الفرد ثانياً، بل على التوفيق بين مصلحة الجماعة، أولاً ومصلحة الفرد ثانياً، بل على التوفيق بين مصلحة الجماعة ومصلحة الفرد، في إطار نصوص الإسلام ومبادئه العامة، فالفعل الاقتصادي الإسلامي هو «عبادة» لله تعالى، ومن هنا.. فهو يقوم في إطار موازين الحق والعدل. أما نظام الاقتصاد الاشتراكي.. فهو نظام اجتماعي يقل فيه الاهتمام بالفرد تجاه الجماعة، وليس له علاقة بأى منظور غيبي، والنظام الاقتصادي الرأسمالي يُعلى من شأن الحرية الفردية في الفعل الاقتصادي، حتى أضحت الثروة مجتمعة في أيدي بضعة بالمئة من الأفراد والشركات، وليس له علاقة بأى منظور غيبي، كالنظام الشيوعي. وآخر ما يُفكر فيه والرأسمالي هو الحق والعدل. وإذ ليس مثل هذا التشابه في مفردات في اللغات، وفي الأنظمة الاقتصادية المختلفة، وفي كثير من العادات والتقاليد والعواطف والمشاعر والأحاسيس، والمعاني الإنسانية - إلا نتيجةً للذي في «الطبيعة» البشرية من تَوْحِيدٍ يَكْبُهُ، وَيُنَوِّعُهُ.. تنوُّع الظروف والبيئات، من غير أن تخرجه عن أصله الظروف والبيئات.

(١) المرجع السابق - ١٨٢.

(٢) هذا الكتاب من تأليف عبد الرحمن أحمد البوريني - عمان / دار الحسن للنشر والتوزيع -

- هذا الكتاب السابق (اللغة العربية - أصل اللغات كلها) أورد من الألفاظ المتشابهة بين العربية والإنجليزية (١٥٠٠) ألفا وخمسمئة كلمة تقريبا (مع شيء من التكلف في رد بعضها من الإنجليزية إلى العربية)، ولم يتناول من القاموس الإنجليزي إلا الكلمات التي تبدأ بالحروف التسعة الآتية: (R - P - M - L - E - D - C - B - A).

ومن هذه الكلمات: (فَرَس: Press، قَرَش، أى: قطع: Crush، يتأقلم: Acclimate، نكتة: Anedote، النعمة: Animate، يبرد: Abrade، يلجأ: Below... الخ)^(١). وطبعاً.. هذا تشابه أصوات - يقع مثله كثيرا. أو تقارض في الألفاظ وهذا يقع كثيرا أيضا.

-أبعد هذا.. يجوز لأحد أن يقول: إن تشابه لغة مع لغة أخرى ببعض المفردات (واللغتان من بيئة واحدة) - يعنى أن إحداهما مُشتقة من الأخرى، أو - أنهما ترجعان إلى أصل لغوي واحد قد انبثقا عنه؟!!

-إن التشابه حتمي بين لغتين في منطقة جغرافية واحدة، وهذا التشابه يجب ألا يحملنا على افتراض أنهما من أصل واحد خاصة عندما لا يكون هذا الأصل معروفاً، وليس له آثار باقية، وهذا.. خلاف اللغة اللاتينية واللغات الأوروبية المنبثقة منها. لأن اللغة اللاتينية لا تزال موجودة، وماثلة في عشرات الكتب، وإن لم تعد لغة حية يستعملها شعب من الشعوب.

أما افتراض وجود لغة سامية أمُّ ليس لها ولا نقش واحد - فهو افتراض لا يزيد على أنه رجم بالغيب، أو نوع من الخيال الواهم، من أناس لا يؤمنون إلا بالتفسير المادى للأشياء، ولا يؤمنون بتفسير «غيبى» أى - باعتبار لغة - ما - وهي لغة القرآن «إلهاما».

٢ - ويقول حجازى: (وأول لغة في الفرع الجنوبي لها دور في التاريخ، هي اللغة العربية الجنوبية القديمة، التي عُرفت قديماً باسم الحِميرية: وعندما قَلَّتْ النقوش الجنوبية فى أواخر القرن السادس الميلادى، كانت العربية الشمالية قد بدأت تنتشر فى المنطقة اللغوية الجنوبية)^(٢).

أقول: ما قلناه فى الرقم السابق (الأول) وهو أن الفصحى لغة، والنبطية لغة أخرى لما أسلفناه من تحليل، هو نفسه يقال عن الفصحى وعن عربية جنوب الجزيرة العربية.

(١) المرجع نفسه، ٧٩، ٨٠.

(٢) حجازى: علم اللغة العربية - ١٨٤ - وانظر صفحة ٢٠٩، ٢٢٢، ٢٢٣.

أما قال أبو عمرو ابن العلاء، في القرن الهجري الثاني: (ما لسان حَمِيرٍ وأقاصى اليمن بلساننا، ولا عربيتُهُم بعروبيتنا)^(١) وهذا يؤكد ما نحن نراه. فتشابهُ أصوات، ولو كثرت، وتشابه أصوات بعض الكلمات، بل وتشابه معانيها - لا يعنى بأن إحداهما مشتقة من الأخرى أو أنهما ترجعان إلى أصل واحد.

٣ - ويقول حجازى: «ظَلَّتْ نصوص الشعر الجاهلى عدة قرون، أقدم نصوص عربية معروفة عند الباحثين (يقصد بنصوص عربية معروفة.. نصوصا بالفصحى) ولكن البحث الحديث، فى القرن التاسع عشر، أوضح، بعد اكتشاف اللُّغة الأكادية، وبحث اللغات السامية بالمنهج المقارن أن خصائص البنية اللغوية للعربية (يقصد الفصحى) ولهجاتها القديمة، يمكن أن تُؤرخ فى ضوء علم اللغات السامية المقارن.

وبذلك.. أمكن عن طريق الدراسة المقارنة، تأريخ كثير من الظواهر العربية (يقصد الفصحى) فى مرحلة أسبق من الشعر الجاهلى بأكثر من ألفي عام، فالظواهر المشتركة فى العربية والأكادية لا يمكن أن تكون إلا موروثه عن اللُّغة السامية الأولى التى خرجت عنها كل اللغات السامية»^(٢).

-أقول: أولاً - بيِّنا فى مقالة سابقة، أن الزعم بوجود لغة سامية أولى انحدرت عنها سائر اللغات السَّماة بالسامية - ما هو إلا خرافة، إذ ليس على هذا الزعم ولا دليل واحد. وثانياً - إن الظواهر المشتركة بين العربية الفصحى والأكادية - ليست أكثر من تلاتي يأتى عن طريق السَّمات المشتركة للبيئات المتقاربة وذات المناخ الجغرافى المتقارب، وعن طريق السَّمات المشتركة بين فِطَر الناس جميعاً، بله فِطَر الناس فى بلدان متجاورة. وقد فصلنا هذه الأسباب فى الرقم الأول، فليست الظواهر المشتركة بين الفصحى والأكادية مختلفة فى حقيقتها، عن الظواهر المشتركة بين الفصحى والنبطية.

ثم.. لو كانت الفصحى لها نُقوش (= نصوص) قبل ألفي عام من ولادة الشعر الجاهلى «لحفظت» الأجيال المتعاقبة شيئاً منها، أيعقل أن تنسى الأجيال كل نصوص الفصحى، قبل الشعر الجاهلى، ثم.. طَفَرَةً تعظم حافظتهم فيحفظون عشرات الآلاف من الأبيات من الشعر الجاهلى؟ فأين التعليل لهذا القَطْع الحاسم؟

(١) محمد بن سلام الجمحى، طبقات فحول الشعراء، المقدمة، ص ١١.

(٢) المرجع السابق - ١٩٣ / انظر فيليب حتى: تاريخ العرب - ٩/١ - الذى يُقرر أن الأبحاث العلمية لم

تُعَدُّ بفائدة حول أبناء نوح.

- ذلك يخالف المعقول، ويخالف العلم الضروري، إذ لم نجد أمة نَسِيَتْ كل ماضيها الأدبي، دَفَعَةً واحدة، لو كان لها ماضٍ أدبي، ثم تفتتت عبقريتها لتحفظ أدب مرحلة متأخرة، أو تحفظ أكثره، لو كان لها ماضٍ أدبي حقاً. متصل بما جاء في الفُصحى من شعر رفيع. ثم.. هل يعقل أن ينبثق شعر رفيع في الفُصحى في العصر الجاهلي، وليس له مقدمات، تدرّجت في النُضج حتى وصلت إلى النُضج الكامل فيه، لو كانت الفُصحى نمت نمواً طبيعياً، كما تنمو اللغات؟

- إن الفُصحى إلهام وتوقيف، وليست تواضعا واصطلاحا.

- الفصحى... إلهام - لكي تكون قادرة على حمل معاني الكون - معاني القرآن الكريم^(١). ولو لم تكن إلهاما، لتغيّرت كل بضعة قرون - كما تتغير سائر اللغات. وهي لا يعقل أن تتغير. وإلا اضطر المسلمون أن يترجموا القرآن الكريم، ولو ترجم القرآن إلى غير لغته «الأصلية».. لما عاد «قرآنا» - حاشاه - بل أضحي كلام بشر. يدخله الخطأ في اللفظ والمعنى، الجلال والهيبة. والروحانية، والإعجاز في تعدد المعاني - هذه الأربعة القائمة فيه، قبل الترجمة. وهذا.. لم يُقدِّره الله تعالى، بل قدَّر تعالى نزوله بلغة إلهامية «خالدة» ليكون خالدًا - مصداقا لقوله تعالى: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴿٩﴾ ﴾ [الحجر: ٩].

٤ - ويقول حجازي: (وبمقارنة الكلمات الأساسية المشتركة في كل اللغات السامية، يستطيع الباحث أن يتبين مجموعة من السمات المشتركة المعروفة في القدم، فكل اللغات السامية لا تتمايز أو تختلف أي اختلاف من ناحية أصوات الرء واللام والنون والتاء والذال)^(٢).

- أقول: شيء مضحك! وهل كل لغات الدنيا تخلو لغة منها من هذه الأصوات وأكثر منها؟ إن جهاز النطق عند كل الناس في كل عصر ومصر متقارب. أيها العربُ المخدوعون بما يقوله هُوَاةٌ من الغرب لا علماء - أفيقوا من نوم لا تزالون في سباته، منذ قرنين كاملين!

٥ - ويقول: (وعلى العكس من هذا تكون الظواهر التي تختلف من لغة سامية لأخرى وذلك مثل ظاهرة أداة التعريف، فهي في العربية (ال) سابقة على الاسم وهي

(١) يراجع في تفصيل هذا الإجمال ما ورد في المقالتين الأولى والثانية.

(٢) حجازي، علم اللغة العربية - ١٩٥.

في العبرية (الهاء) تسبق الاسم، وفي الآرامية (فتحة) طويلة تأتي بعد الاسم واختلاف هذه الظاهرة من لغة سامية لأخرى.. معناه أنها غير مورثة عن اللغة السامية الأم. وأن كل لغة طورت لنفسها أداة للتعريف، فاختلقت بذلك أداة التعريف في اللغات السامية المختلفة^(١).

- أقول: شكرا لك يا دكتور حجازي، فأنت رجل - كغيرك من العرب - تقدر ما يقوله هواة من الغرب، وتقلده. والتقليد والتقليد - ينتهيان بالكاتب ألا يستخدم عقله - للشك والنقد - وإنما يستخدمه «للتبرير» - كما يفعل رجال الدين الإسلامي بعد القرن الرابع الهجري. فقد أمسوا مُقدِّسين مقلدين - لما قاله السابقون، فباتوا - مُبرِّرين - لا شاكين، ولا ناقدين. والله الهادي - يوفق الجميع إلى حُسن التبرير.

- أقول: هذا الاختلاف في أداة التعريف «دليل واضح على أن هذه اللغات لا ترجع إلى لغة «أم»، وإنما هي لغات نشأت في منطقة جغرافية، يجاور كل شعب فيها الآخر، فكان هناك اقتراض، وكان هناك اختلاف، ولو كانت منبثقة عن «أم» واحدة لما اختلفت أداة التعريف بينها هذا الاختلاف البين. بل لما كان لكل بنت «قَرْنان» (أى: أداة تعريف) على حين كانت الأم المسكينة قرعاء!

- ومثل هذا الاختلاف.. اختلاف الضمائر، فضمير المتكلم المتصل بالماضي هو في بعض هذه اللغات «التاء» وفي بعضها الكاف^(٢).

- ومثله: أن «الكاف» ضمير المخاطب في اللغة السامية الأم، وأن «التاء» كانت ضمير المتكلم، ثم استخدمت العربية «التاء» لكلا المتكلم والمخاطب^(٣).

- أقول: أين هي هذه السامية «أم»؟ هاتوا لنا نقشا واحدا يدل عليها، لنصدق هذا الخيال الواهم، ثم «إن العربية» (المقصود الفصحى) بنت «عاقلة» فلم تلتزم بتراث أمها المزعومة في صوغها للضمائر!!

٦ - ويقول: (وقد أثبت البحث المقارن في اللغات السامية، أن الأصل الثلاثي كامن وراء أكثر كلمات اللغات السامية، وفي نفس الوقت ظهر عن طريق المقارنة أن مجموعة من الكلمات يمكن أن ترد إلى أصول ثنائية)^(٤).

(١) المرجع السابق - ١٩٧.

(٢) المرجع السابق - ٢٠٤.

(٣) () المرجع السابق - ٢٠٥.

(٤) المرجع السابق - ٢٠٥.

– أقول: وهل أكثر لغات الدنيا على غير ذلك؟ إن جهاز النطق «متقارب» وليس متماثلاً عند البشر كلهم، وليس من مجموعة بشرية أصول معظم الكلمات عندهم ستة حروف. فلماذا نخص لغات هذه المنطقة العربية بهذه الظاهرة العامة؟ لا يحمل على ذلك إلا عناد علماء النقوش الغربيين في أن نظريتهم عما سموه اللغات السامية و«أمهن» صحيحة، وهي في الحقيقة – محض هراء. ثم.. لا يحمل عليه إلا تقليدنا نحن – العرب – لهم، وكأننا، وقد تخلينا – أولاً – أخلاقياً عن المساهمة في الحضارة، ثم عملياً، بالتقديس والتقليد والتبرير – قد حَرَمْنَا أنفسنا من موهبة الثناء والنقد!

٧ – ويقول: (ووفق هذا المعيار يؤرخ أقدم النقوش الثمودية بالقرن الخامس قبل الميلاد، ويؤرخ أحدثها بالقرن الرابع الميلادي)^(١).

– أقول: على هذا النص أربع ملاحظات هي:

الأولى: أن القرآن الكريم يذكر عن بلاد ثمود (في شمال الجزيرة العربية) أنها كانت ذات عيون وجنات؛ قال صالح نبيهم عليه السلام: ﴿أَتَتْرَكُونَ فِي مَا هَهُنَاءَ مِنْكُمْ ﴿١١٣﴾ فِي جَنَّتٍ وَعَيُْونٍ ﴿١١٧﴾ وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلَعَتْ هَاضِمًا ﴿١١٨﴾﴾ [الشعراء: ١٤٦ – ١٤٨]. معنى ذلك أن بلادهم كانت في القرن الرابع – لو صحت قراءة النقوش – ذات جناتٍ وعيون، فكيف لم يذكر ذلك عربُ الجاهلية في نصوصهم؟ بل كيف لم يذكر ذلك امرؤ القيس في شعره، وقد كان ولد في مطلع القرن الخامس قبل الميلاد؟ فليس بينه وبينهم سوى قرن واحد. لو صحَّ تاريخ النقوش؟ أم أن امرأ القيس الذي توجه لتقاء بلاد الروم، بعد قتل أبيه يريد أن يعينوه بما يثارُ به لأبيه، لم يلتفت إلى بلاد ثمود التي كانت على (مرمى العصا) منه؟

الثانية: إن بين القرن الرابع قبل الميلاد، وبين مطلع نور الإسلام قرنين فقط، فكيف اختلفت هذه العيون، وهذه الزروع خلال قرنين فقط؟ هل يتم تغيير المناخ من مناخ خصب إلى مناخ جدد صحراوي، خلال قرنين فقط؟ الجواب... نعم. لأن هذين قرنين من قرون هواة الغرب، والذي لا يصدقهم هو متخلف... والذي يجحد ما يقولونه... يكفر.

الثالثة: أن الناقد – محمد بن سلام (ت: ٢٣١) ينكر على ابن إسحاق (ت ١٥١هـ) أن يذكر شعراً لعادٍ وثمود، فلو كانوا بهذا القرب الزمني من مطلع نور الإسلامى لما أنكر ابن سلام عليه ذلك، (إذا أورده ابن إسحاق في السيرة النبوية العطرة) وكان شعرهم مشهوراً

(١) المرجع السابق – ٢١٩.

مذكورا بين عرب الفُصحى.. ولوجدت من ردِّ علي ابن سلام وصوب قوله هذا^(١). فأين هذا الردّ - أيها الجهابذة - الذين معكم كامل الحق أن تقلدوا جهايزة الغرب.

الرابعة - أن ما قاله الدكتور حجازي - نقلا عن هواة النقوش اللغوية الغربيين - ليس فيه أي إشارة إلى أن لهذه النقوش علاقةً بالعربية الفُصحى، ولكن لو وجدت علاقة «فهي كعلاقة الأكادية أو الآرامية بالفُصحى، أي: هي علاقة تقارض الألفاظ، أو تشابهها، أو تشابه الأصوات ليس أكثر كما فصلنا ذلك في الرقم الأول، من هذه المقالة.

٨ - ويقول: (إن الخصائص اللغوية للنقوش الثمودية والصفوية والحيانية تثبت أن كتّابها كانوا من البيئة اللغوية العربية. وتثبت أسماء الأعلام الواردة في هذه النقوش أن كتّابها عرب جاهليون وثنيون نجد فيها أسماء عربية مثل: حبيب وهذيل وقيس ومطر، كما نجد فيها أسماء مركبة منسوبة إلى معبودات الجاهلية، مثل: عبد متاة، وزيد شمس، وعبد أيل، وعبد يَغوث... وهكذا تثبت الخصائص اللغوية لهذه النقوش، وأسماء الأعلام الواردة فيها، وسلاسل النُسب فيها أن كتاب هذه النقوش عرب، وأن لهجاتهم اليومية تدخل في إطار اللهجات العربية)^(٢).

- أقول: أولا - إن وجود أسماء عربية في هذه النصوص، ووجود أسماء معبودات جاهلية فيها - لا يعنى، بحال موجبة، أن لهجات هؤلاء الأقوام تدخل في إطار اللهجات الجاهلية - المنسوبة إلى الفُصحى لثلاثة أسباب:

(أ) لأن الله تعالى عندما «أنسى» عرب الفُصحى لغتهم التي كانوا يتكلمونها، وأثبت مكانها الفُصحى (كألفاظ غالبية وكأصول)^(٣) لم يُنسبهم أسماء قبائلهم، ولا أسماء ما كانوا يعبدون، وإنما أنساهم اللغة كألفاظ تعبّر عن الأفكار والوجدان، وكنظامين: صرفي وتركيبي.

(ب) ولأن تشابه ألفاظ أو تماثلها.. لا يعنى أن اللهجتين (أو اللغتين)، مشتقة إحداهما من الأخرى، أو متولدة إحداهما عن الأخرى، (كما فصلنا في الرقم الأول والرقم الثاني من هذه المقالة).

(ج) ولأن لهجات الفُصحى السبع التي جمّع منها اللغة الفُصحى علماء اللغة إنما هي «لغة واحدة» لا تختلف بأكثر من واحد بالئمة من الألفاظ، كأن تُسمّى قبيلة القمر «حنطة»

(١) طبقات فحول الشعراء ص ١١.

(٢) حجازي - ٢٢٣، ٢٢٤.

(٣) انظر مقالتنا الأولى تحت عنوان «اللغة العربية ألبهام هي أم مواضعة واصطلاح؟»

وتسميه أخرى «بُرّاً»، وتكون تسمية فالثة له «قمحا». وكل ما بينهما من اختلاف بعد هو في «منحى» الصوت، كأن تقول قبيلة: ﴿مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ [الفاتحة: ٤] باستطالة الألف، والأخرى بالميل به نحو صوت الياء، كما يلفظ الألف في لبنان حتى الآن، أو أن تقول قبيلة: سَقْرٌ، وأخرى: زَقْرٌ، والثالثة: صَقْرٌ، وهذا النوع الأخير قليل جدا جدا.

- أما ما كان في لهجات هذه القبائل من (الكشكشة أو العنعنة..) (١) فلم تأخذ به الفصحى، وإنما سجله العلماء كرصده علمي ولكن لا تستسيغه الفصحى التي استقر أمثلها في مكة عند قريش، والتي نزل بها القرآن الكريم - نزل بها أكثره، لأن مكة كانت حاضرة الشمال، وكان العرب يقدون إليها في مواسم الحج، وعلى هامش موسم الحج كانت تقوم تجارة، وأسواق للشعر، كسوق عُكاظ، فكانت قريش - المتحضرة - تأخذ من القبائل الوافدة، أعذب الألفاظ، مما جدّ عندهم من اشتقاقات (لأن أصل اللهجات في الشمال هو لغة واحدة ألهمهم الله تعالى إياها كما قررنا)، وكانت القبائل تحاول ألا يبتعد منحى أصواتها عن منحى صوت قريش (= لهجة قريش)، لأنهم لا يستغنون عن التعامل معها.

- فكان التقارب كبيرا، يدل على ذلك أن القبائل العربية كانت تتناشد أشعارا في سوق عُكاظ لا يختلف بعضها عن بعض، بدليل ما وصل إلينا منها، وهو كثير، فهو بلغة واحدة، بشكل عام، وبدليل أن هذه القبائل كان يفهم بعضها أشعار بعضها الآخر، دون أدنى لبس. أعنى.. قبائل عرب الشمال.

- بل.. وبدليل أن القرآن الكريم كان مفهوما للجميع، مع اختلاف قليل في منحى الصوت أحيانا، وفي قليل من الكلمات مثل قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ارْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ بَحْرِنَهَا وَمُرْسَتْهَا إِنْ رَيْتُمْ لَمَفْرَرًا فَجِمْ﴾ [هود: ٤١]، فقد (قرأ مجاهد: مجريها ومرسيها) بلفظ اسم الفاعل.

-أليس هذا: «كافيا ليقنعنا أن لهجات الأقوام الأخرى - في جنوب الجزيرة العربية، وعلى أطرافها - إنما هي لهجات أخرى تختلف عن لهجات الفصحى؟ وما بينها وبين الفصحى أو لهجاتها، إنما هو من باب التقارض أو التقارب - الذين يقعان حتى بين اللغات المتباعدة، كما بينا في الرقم الأول، فكيف بلغات منطقة جغرافية واحدة؟

(١) الكشكشة.. وهى في قبيلتي ربيعة ومضر، مثل: عيناش، بدل: عيناك، والنعنة في قبيلة تميم، مثل: (أعن ترسمت من أسماء منزلة) أى: أن ترسمت، إذ يُبدلون بالهمزة عينا. وهى لهجات مذمومة، مطرحة لا يعمل بها.

وكوْنُ الفُصْحَى لم تختلف أَلْفَاظُهَا - اختلافا كاملا - من أَلْفَاظِ هَذِهِ اللُّغَاتِ المَحِيْطَةِ بِمَنْطَقَتِهَا فَهَذَا.. مَا أَجْبَنَا عَلَيْهِ بِالتَّفْصِيْلِ فِي المَقَالَةِ الثَّانِيَةِ - من هَذَا القِسْمِ من هَذَا الكِتَابِ، وَهُوَ أَنَّ إِرَادَةَ اللّهِ تَعَالَى قَضَتْ أَلَّا تَأْتِيَ الأَشْيَاءُ عَلَى الأَرْضِ، (ومِنْهَا اللُّغَةُ الفُصْحَى الوَاقِعَةُ إِلهَامًا)، قَفْزَةً فِي فِرَاقٍ، وَإِنَّمَا تَكُونُ شَبِيهَةً بِالوَاقِعِ، وَإِن كَانَتْ - بِخِصَائِصِهَا - تَعْلُو عَلَى الوَاقِعِ تَعْلُو عَلَى خِصَائِصِ اللُّغَاتِ الأَرْضِيَّةِ كُلِّهَا، وَإِن كَانَتْ لَا تَفَارِقُهَا مَفَارِقَةَ النَّقِيضِ لِلنَّقِيضِ، وَهَلِ القُرْآنُ الكَرِيمُ - المَعْجَزُ - نَزَلَ بِأَلْفَاظٍ غَيْرِ أَلْفَاظِ الفُصْحَى الَّتِي يَسْتَعْمِلُهَا العَرَبُ وَإِن لَمْ تَكُنْ مَأْخُوذَةً مِنَ الفُصْحَى؟ وَجَاءَ بِهَا بِطَرِيقَةٍ - مَخْصُوصَةٍ - يَعْجَزُ عَنْهَا الإِنْسُ وَالجِنُّ، القُرْآنُ مِنَ الوَجْهَةِ الأُولَى عَرَبِيٌّ اللُّغَةَ وَإِن لَمْ يَأْخُذْ أَلْفَاظُهُ مِنَ العَرَبِيَّةِ الفُصْحَى - لِأَنَّ القُرْآنَ كَلَامُ اللّهِ تَعَالَى، وَكَلَامُ اللّهِ قَدِيمٌ، وَاللُّغَةُ العَرَبِيَّةُ حَادِثَةٌ مِنْ حَيْثُ وَجُودِهَا عَلَى الأَرْضِ. وَمِنَ الوَجْهَةِ الثَّانِيَةِ مَفَارِقٌ لِمَا يَسْتَطِيعُهُ العَرَبُ (وَالإِنْسُ وَالجِنُّ عَامَةً) فِي اسْتِعْمَالِهَا لِلُّغَةِ. مِنْ حَيْثُ طَرِيقَةُ ضَمِّ الأَلْفَاظِ. بَعْضُهَا إِلَى بَعْضٍ.

- هَذِهِ هِيَ مِثْيَةُ اللّهِ تَعَالَى فِي أُمُورِ الدُّنْيَا كُلِّهَا، نَسْتُنْتَنِي بَعْضَ المَعْجَزَاتِ.

- وَبَعْدَ، فَإِنِّي أَرَى أَنَّ مَا سَبَقَ فِي هَذِهِ المَقَالَةِ، كَافٍ لِدَحْضِ مَزَاعِمِ عُلَمَاءِ النُّقُوشِ اللُّغَوِيَّةِ - العَرَبِيِّينَ الَّذِينَ يَرَوْنَ أَنَّهُ كَانَ فِي زَمَنِ سَحِيْقٍ يَسْبِقُ التَّارِيخَ لُغَةً سَامِيَّةً أُمَّ اللُّغَاتِ السَّامِيَّةِ، وَمِنَ السَّامِيَّاتِ العَرَبِيَّةِ، لِأَنَّ حِكَايَةَ أَنَّ نُوحًا عَلَيْهِ السَّلَامُ كَانَ لَهُ ثَلَاثَةُ أَبْنَاءٍ هُمْ: - سَامٌ وَحَامٌ وَيَافِثٌ - لَا تَقُومُ عَلَى خَبَرٍ صَحِيْحٍ مُؤَثَّقٍ. وَمَا فِي التَّوْرَةِ مِنْ أَخْبَارٍ، وَقَدْ كَتَبْتُ فِي مَعْظَمِهَا، بَعْدَ وَفَاةِ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ، بِسَبْعَةِ قُرُونٍ، لَا يَصِحُّ أَنْ يَكُونَ مَصْدَرُ عِلْمٍ يَقِيْنِي وَإِلَّا.. فَلَْيَأْتُوا بِنَقْشٍ وَاحِدٍ مِنْ هَذِهِ اللُّغَةِ الأُمِّ - المَزْعُومَةِ- !.

- فَالعَرَبِيَّةُ الفُصْحَى هِيَ لُغَةُ أَلْهَمَهَا اللّهُ تَعَالَى عَرَبَ الشَّمَالِ، لِكَيْ تَكُونَ قَادِرَةً عَلَى حَمْلِ القُرْآنِ الكَرِيمِ. وَنَسَبَتْهَا هِيَ إِلَى العَرَبِ وَإِلَى الفِصَاحَةِ، لَا إِلَى مَا يُسَمَّى «سَامًا» وَيُزَعَمُ أَنَّهُ مِنْ أَبْنَاءِ نُوحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ. وَلَكِنَّ الأُمَّةَ الَّتِي عَشَعَشَ وَالتَّقْلِيدَ لِلقَدَامَى فِي أَعْمَاقِهَا.. وَنَتِيْجَةُ لِذَلِكَ كَانَ «التَّبْرِيْرُ»، وَنَسَبَتْ الشُّكَّ وَالنَّقْدَ - اللَّذِيْنَ أَمْرَهُمَ بِهِمَا القُرْآنُ، فَقَالَ تَعَالَى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنْ جَاءَ كُرْفَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا أَنْ تُصِيبُوا قَوْمًا بِمِجْهَلَةٍ فَتُصِحُّوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ ﴿٦﴾﴾، أَجَلَ عَشَعَشَتْ هَذِهِ المَدْمَرَاتِ الثَّلَاثَةَ - التَّقْدِيْسُ وَالتَّقْلِيدُ، وَالتَّبْرِيْرُ، مِنْذُ نَهَايَةِ القَرْنِ الرَّابِعِ المَهْجَرِيِّ، فِي أَعْمَاقِهَا - ثُمَّ عَشَعَشَتْ، مِنْذُ مَطْلَعِ القَرْنِ التَّاسِعِ عَشَرَ - تَقْدِيْسًا وَتَقْلِيدًا، لِلعَرَبِ، وَتَبْرِيْرًا لِمَا يَزْعُمُونَهُ، عَنِ العَرَبِ وَالإِسْلَامِ، وَإِن كَانَ بِاطْلَا

صُراحاً، وكُفراً بَوَاحَا- !، والتقدّيس - هنا - هو لغير مقدس، فالقدوس هو الله تعالى
- والمقدس هو الرسول والقرآن فحسب.
- هذه الأمة.. صدقت أكذوبة قالها رجل مُتَّصِهِيْنٌ، بُعِيدَ منتصف القرن الثامن، سماها
(نظرية) - وما هي إلا حُلْمٌ باطل، وخيال واهم، وتنكب للحق التاريخي - في حقيقة
اللغة الفصحى - المبين.
انتهى القسم الثاني - بتوفيق الله وفضله..